حنا أرنت: من أجل مواطنة عالمية

كاترين كليمان
ترجمة: عز الدين الخطابي

أصبحت حنا أرندت التي نالت الشهرة بعد وفاتها، نموذجا ومرجعا بالنسبة للفكر السياسي. فقد ظهرت ثلاث مؤلفات جديدة تبرز آراء هذه المثقفة اليهودية التي أرادت أن تفهم الشر الكياني، مقترحة كعلاج "تعددية مفارقة للكائنات المتفردة".

لقد برز وجه امرأة، منبثق من تاريخ الفكر السياسي في القرن العشرين، إنه وجه حنا أرنت ففي الولايات المتحدة الأمريكية، كانت آراؤها تدرس منذ زمن بالجامعات الأمريكية التي تعتبر ممرا أساسيا نحو الشهرة بالنسبة للمثقف، وبألمانيا شغلت مراسلاتها مع هايدجر اهتمام الباحثين سنة 1998, وبفرنسا أخيرا، لا تمر ستة أشهر دون إصدار جديد لها أو حولها.

ومع ذلك، تظل شهرة أرنت حديثة العهد، ففي أواخر الستينات، وبمناسبة صدور كتابها حول محاكمة إيخمان Eichmani تساءلت مجلة le nouvel observateur بجدية، عما إذا لم تكن أرنت معادية للسامية. ومنذ تلك المرحلة، أو ربما بسببها، أصبحت هذه المثقفة نموذجا ومرجعا بالنسبة للفكر السياسي.

فقد صدرت مؤخرا ثلاث مؤلفات تسلط الضوء على حياة وفكر حنا منها: سيرة حياة ـ وهي الأولى من نوعها ـ ومجموعة مراسلات وعمل فلسفي ضخم. وهذه المؤلفات ضرورية لمعرفة أرنت الإنسانة والمرأة والمفكرة السياسية. والملاحظ أن كونها امرأة لم يكن يعني بالنسبة إليها شيئا مميزا، فنادرا ما كانت هذه المثقفة تتبنى الموقف النسواني، وكانت تعلن بوداعة عن هذا "الاختلاف الصغير" الذي لا يمكنها التملص منه. وإذن لم تكن أرنت نسوانية، لكنها بالمقابل، كانت فتاة عاشقة وزوجة بالمعنى اللائق للكلمة.

وتعتبر البيوغرافيا التي أصدرتها إليزابيت يونغ بروبل E.Y.Bruehl بمنشورات انتربوس والتي أعيد نشرها

بعد أن فقدت من السوق، بمثابة العمل الذي سيغير الكثير من التصورات الشائعة حول أرنت. فهذه الأخيرة، تقول المؤلفة، ليست مثقفة عنيدة وصارمة، وإن كانت انسانة قلقة. ومصدر قلقها يرجع إلى أسباب عديدة: ففي سن السابعة كانت مجبرة على مساعدة أبيها المريض على المشي، ولم تعرف فيما بعد سبب موته. كما أنها خضعت لفحوصات طبية، بغية التأكد من عدم إصابتها بالسفليس، وهو ما كان يعتبر أمرا خطيرا في بداية هذا القرن، لأن العلاج من هذا المرض لم يكن قد اكتشف بعد. ويكفي أن نتصور في وقتنا هذا ومن باب المقارنة، حالة فتاة مصابة بالسيدا ويتهددها الموت يوميا. ولحسن الحظ فإن أم حنا ستتزوج مرة ثانية. وبالرغم من تنامي النزعة المعادية للسامية بألمانيا، والتي واجهتها الأم بحزم، فإن مرحلة شباب أرنت كانت سعيدة.

بالمقابل، فإن ألمانيا ما بعد سنة 1918، كانت تعيش أوضاعا مضطربة: فأم أرنت كانت مثل زوجها المتوفى، يسارية متطرفة [من أنصار حزب سبارتكوس]، وكانت حنا تشارك في المظاهرات وهي صغيرة السن، إلى حين اغتيال روزا لوكسمبورغ التي تركت أثرا لا يمحي بذاكرة وقلب الفتاة. وفي المناخ المأساوي لأزمة 1929، والذي سيمهد لظهورالفاشية، ستباشر حنا دراستها الفلسفية. وتظهرها صور تلك المرحلة كأميرة صغيرة، يهودية، في ريعان الشباب، ديناميكية لكن حزينة. وستصبح هذه الفتاة النموذجية، وعلى مدى أربع سنوات، عشيقة لأستاذها مارتن هايدجر زوج إلفريد Elfride التي تبنت المواقف النازية منذ سنة 1922. وكانت العلاقة عادية، وتخللتها السلوكات الدنيئة أحيانا، والأسرار والأشعاروحدة الانفعال والقطيعة. ولن يلتقي العاشقان السريان من جديد سوى في سنة 1950 ليسجلا علاقة غرامية من وجهة نظر التاريخ. ذلك أن هايدغر سيبرز سنة 1936 بعض التعاطف مع الأطروحة العرقية النازية، كما أن حنا ستفلت بأعجوبة من قبضة الغستابو، لتأخذ طريق المنفى الطويل الذي سيقودها إلى باريس، ثم إلى معتقل غورس Gurs حيث ستسجن سنة1940، لتحط الرحال بنيويورك شهورا بعد ذلك.

وفي تلك المدة، ستتزوج حنا وتحصل على الطلاق ثم تتزوج ثانية، كما أن العشيقين القدميين [أرندت وهايدجر] لن يفترقا أبدا. ورغم ردود الأفعال المضحكة أحيانا، لالفريد الغيورة، فإن حنا تزور مارتن بانتظام. لماذا كل هذا الحنان تجاه فيلسوف اتهم بالنازية؟ تجيب حنا بأنها لا تريد أن تفقد رباطا أساسيا في حياتها. وسيظل هذا الحب الأفلاطوني الذي يعتبر لغزا محيرا، قائما إلى حين وفاة حنا.

وإذا ما عدنا إلى الوراء، فإننا سنلاحظ بأن حنا، وبمجرد قطعها الصلة مع هايدجر في العلاقة الاولى من علاقتهما، ستنخرط في صفوف اليسار. فقد كان زوجها الأول يشتغل مع برتولد بريخت B.Brecht وكانت هي من جانبها تأوي في منزلها الشيوعيين المطاردين من طرف أجهزة النظام. ولأنها تنتمي إلى الشبيبة اليهودية المثقفة، فقد كانت متعاطفة مع المذهب الصهيوني، رغم أن عائلتها كانت تدعو إلى اندماج اليهود في

المجتمعات التي يتواجدان بها، وكانت كعائلة برجوازية متوسطة تدافع عن العلم الألماني في الحرب العالمية الأولى. غير أن جيل حنا كان متحمسا لمشروع هرتزل بإقامة وطن لليهود على أرض فلسطين. وفي منفاها الباريسي، سترافق سنة1935 مجموعة من الشباب اليهود إلى فلسطين.

لكن وضد مجرى التيار، سيكون رد فعل حنا في القدس مدويا، حيث ستبدو ألمانية أكثر مما كان متوقعا، وستعلن عن اشمئزازها من ثرثرة اليهود الشرقيين حول الغيتوهات ومن عاداتهم وسلوكاتهم. كما ستظل طوال حياتها، متأرجحة بين التعاطف مع إسرائيل والإعلان المستمر عن خيبة أملها من مآل الأوضاع في أرض فلسطين. ومن هذه الزاوية، وجب علينا فهم الفضيحة التي أثارتها بشكل غير مباشر، محاكمة إيخمان سنة 1961. فقد تحدت أرنت الجميع بنقدها للمدعي العام الإسرائيلي وبإثارتها السؤال: لماذا وجب التحدث بالعبرية أثناء المحاكمة علما بأن الشهود والمتهم والمحلفين هم يهود ألمان؟ وسيصل التحدي ذورته، حينما ستتحدث عن مسؤولية المجالس اليهودية Juden räte التي أنشأها النازيون لوضع اليد على لوائح الأشخاص الذين سيرسلون إلى معسكرات الاعتقال. وقد طرح السؤال التالي على إثر ذلك: هل تعتبر أرنت معادية للسامية؟ وإلى يومنا هذا، لا يزال الجواب في إسرائيل بالإجاب.

إن هذا الأمر سيبرز ضخامة المشاكل المطروحة وصعوبة حلها. وقد عانت أرنت من الحملة الشرسة التي قادها ضدها المثقفون اليهود بأمريكا. إلا أنها لم تتنازل عن مواقفها قيد أنملة. وحتى لو افترضنا أنها أخطأت في بعض القضايا، فإن ذلك لم يؤثر على قيمة كتابها المنشور بفرنسا تحت عنوان **أيخمان بالقدس**. وهو الكتاب الذي أصبح يقرأ بشكل جيد منذ محاكمة بابون Papon بفرنسا.

كانت الحياة الأمريكية لحنا مثقلة بالمهام. فزوجها الثاني كان عاطلا عن العمل، وكانت أمها تقيم عندها. كما أن الدروس والمحاضرات والحلقات الدراسية والندوات والأسفار والإصدارات بالخارج، كانت كثيرة. ولمسايرة هذا الإيقاع كانت تفرط في التدخين وشرب القهوة. وما حصدته من كل هذا، هو شهرتها على المستوى الجامعي، وهي باهتة بالمقارنة مع شهرتها الحالية.

وفي سنة 1970 توفي زوجها بشكل مفاجئ، وستستمر حياة أرنت من بعده هادئة، شبه منعزلة، لأنه لم يكن لها أبناء، إلى أن وافتها المنية سنة 1975.

ومع ذلك، ستظل أرنت على اتصال بمجموعة من الأصدقاء الذين تبادلت معهم رسائل كثيرة. وقد سبق أن نشرت مراسلاتها مع الفيلسوف كارل ياسبرز K.Jaspers ـ نموذجها في التفلسف ـ وتتضمن رسائل جافة، موسومة بالقلق الألماني لما بعد الحرب. بالمقابل، فإن الرسائل المتبادلة مع ماري ماكارثي .M

Mac Carthy كانت غريبة، هستيرية بعض الشيء وممتعة. وفي انتظار نشر مراسلاتها مع هايدجر، فإن رسائلها المتبادلة مع زوجها الثاني هنريك بلوخر H.Blücher، ذلك المواطن الغريب الأطوارالذي لم يكن يهوديا ـ وهو أمر لم تكن حنا تعيره أي اهتمام ـ ومع زوجها الأول غونتر شتيرن G.Stern المدعو بأندرس Anders وهي أن حنا لا يمكنها أن تحب سوى إنسانا غير يهودي.

فهل يفسر هذا الاختيار رغبتها في نقد مساوئ إسرائيل بكل حرية؟ قد يكون ذلك ممكنا بالنظر إلى علاقتها ببلوخر. لكن هناك سبب آخر: فعلاقتها المعقدة مع غير اليهودي ترجع إلى أصولها العائلية، إذ أن أسرتها كانت تدعو إلى الاندماج داخل المجتمع الألماني، كما ترجع إلى حبها الدائم لها يدجر.

وبخصوص بلوخر، فقد كان كما قلنا، غير يهودي، وكان أيضا رجلا عصاميا لم يذهب إلى المدارس أبدا. وكان يتوفر باعتباره راديكاليا في مواقفه، على كل المميزات لإغراء حنا. فهو من أصول عمالية، وكمناضل يساري متطرف [من السبارتاكيين] فقد حمل البندقية بشوارع برلين قبل أن ينخرط بالحزب الشيوعي الألماني. وكان لقاؤه بحنا في باريس، وبعد افتراق بسبب الحرب، سيلتقيان من جديد عن طريق الصدفة بمنتوبان Montauban التي سيغادرانها على الفور.

سيسجن بلوخر هو أيضا في معسكر الاعتقال، ومن هناك سيكتب إلى حنا رسائل رهيبة، عادية وخاضعة للرقابة. وقد كان متزوجا مثل حنا، لكن هذا الأمر لم يرد بتاتا في مراستهما المتضمنة لقضايا النفي والمطاردة والحرب والحرية.

وسيأخذان معا نفس الباخرة المتوجهة من لشبونة إلى نيويورك حيث سيبدآن حياة جديدة. إلا أن بلوخر سيندمج بصعوبة في المجتمع الأمريكي، كما ستكون له مشاكل مع حماته. وباختصار فإن الأمورلم تكن على ما يرام بالنسبة إليه.

لكن إذا كان هناك من شخص ساهم في تجلي فكر أرنت، سيكون هو هذا الزوج المنعزل والمتوفر على ذكاء سياسي حاد. فما بين 1936 و1968 سيصبح هذا العاشق المتحمس إنسانا رقيقا، وسيتحول من سياسي حانق إلى مدرس وديع للفلسفة. ومن الأمور المؤثرة رؤية أرنت وهي ترسل لزوجها عبر البريد "صفعة صغيرة وقبلة" ورؤيته وهو يدعوها: "ياصغيرتي، يا لطيفتي وطيبتي وياوحيدتي وحكيمتي وجميلتي" وأيضا "يامنفوشتي". فقد كان بلوخر يتوفر على روح فكاهية وشعرية، ويبدو ذلك جليا حينما يعتبر نفسه ذلك الكائن الذي وهبته حنا الحياة بمجرد قولها: "إني أحبك"! والآن، يقول بلوخر "فأنا أغني وأرقص فرحا رغم ثقل لساني وعدم مهارة أرجلي."

كان بلوخر يعبدها، ومع ذلك، ما كانت لتقوم لها قائمة بدونه، فبفضله كانت انطلاقتها وكانت رسائله الأولى ذات بداهة سريعة ومتوحشة، خصوصا أثناء حديثه عن ياسبرز "آخر المدافعين عن النزعة الإنسانية"، ياسبرز "الذي كان يضع وقاءه الشفاف المصنوع من الجبنة المكورة، المتناسقة والبراقة، فوق الجبنة النتنة التي تجسدها الأشياء المعروضة كما هي. "ياسبرز الذي" يتعب نفسه في الحديث عن الهوية الألمانية "مستخدما" لغة ملعونة، قومية، حزينة، مسيحية، إيمانية وهيجيلية. "وقد أحسن بلوخر القول! فالثوري المناهض للكنيسة لا يقتنع بهذه الأفكار. إن ما يشغله هو هاجس ميتافيزيقا الحب والعلاقة الطاهرة الغريبة إلى درجة أنها تفرض إيمانا قويا وتحليلا متينا. لقد كانت سخرية بلوخر الفلسفية غاية في الروعة: فكيركغارد Kirkegaard يسجن نفسه داخل أطلال ماركس "مرفوقا بأناه الأخلاقي وبإلاه خاص به." كما أن ملاحظاته في المجال الجيو- سياسي كانت مذهلة.

هكذا يمكن القول بأن أبرز اكتشاف ضمن مراسلات أرنت/ بلوخر، يتعلق بهذا الإنسان الشغوف غير المعروف والمحبوب بقوة من طرف حنا. فمعه كانت هذه الأخيرة تعبر عن آرائها بدون مواربة. وبين الأشعار والضربات الموجعة، كانت تبرز المواقف: ضد رمون أرون والمثقفين الفرنسيين، وضد أروبا التي فقدت هيبتها ودغول De Gaulle "هذا المنقذ البليد للوطن." فلم تكن حنا تعشق في فرنسا سوى حقول الأزهار وفصل الربيع، إلى درجة أن بلوخر شعر "بالحنين إلى هذا البلد".

كما أن خدشاتها ستتجه صوب إسرائيل وذلك سنة 1955, حيث اعتبرت معاملة الدولة العبرية للعرب " كافية لأن تستعدي عليها العالم برمته. "هذه الدولة التي يسود بداخلها الرعب الأرثودوكسي" المتمثل في تلك العصابة المدثرة بالسواد والعطشى إلى السلطة". وأيضا سنة 1961, بمناسبة محاكمة إيخمان، فقد فضحت أسلوب المحاكمة: إذ أن إيخمان كان موضوعا داخل قفص زجاجي مثل شبح "وكأن الأمر هو بمثابة إعلان عن جلسة روحانية" وقبالته كان المدعي العام "المقرف" الذي كان يجسد "عقلية الغيتو المدعمة بالمدرعات وبالاستعراض العسكري." فأمام هذا الشخص، تقول حنا" سيستنتج العالم كله بأن تقتيل اليهود هو أمر عادي بالنسبة لغير اليهود. " لقد كانت حنا حانقة ومتألمة من خيانة المثل الأعلى الذي كان لديها: فالحلم الصهيوني تجسد بشكل وضيع على أرض الواقع. وهذه الحقيقة كانت تبرز بشكل تلقائي في رسائلها إلى بلوخر أكثر مما تبرز في كتبها، فمع بلوخر

"الحديث معا عن الشيء الواقعي The real thing".

كانت تلك هي حياة حنا زوجة بلوخر، ويبقى علينا بعد الاكتشاف المثير لعواطفها، أن نتعرف على فكرها

السياسي، وهو ما قامت به بدقة الباحثة إتيين تاسين E.Tassin . إن نقطة الانطلاق في هذا الإطار تبدو مدهشة. فأرنت التي كانت من بين أبرز الفلاسفة الشباب من جيلها، ستتنكر لهذا الانتماء قائلة: «إنني لا أنتمي إلى حلقة الفلاسفة، فمهمتي هي النظرية السياسية». وقد يعتبر هذا الأمر بمثابة مزحة، إذا ما علمنا بأن أرنت تتلمذت على يد هوسرل وهايدجر! فهل نعتبر هذه المزحة كإعلان عن خيبة أمل بعد قضية إيخمان؟ كلا. فحسب تاسين، هناك ثلاث قضايا تخترق فكر أرنت وهي: محاكمة وموت سقراط أو الصراع بين المدينة والفلسفة، وأوشفيتز Auschwitz أو الصراع بين الفكر واللاإنسانية، وأخيرا الصراع بين الفكر والممارسة. ومن المؤكد أن لأرندت أسباب وجيهة للقيام بمحاكمة الفلسفة. إذ من الواضح أن هذه القضايا الثلاث ترتبط بهايدجر. بل إن هوسرل نفسه يعتبر معنيا هنا، لأنه اعتبر أروبا كقطب خالد للكونية.

ومقابل هذه الميتافيزيقا الكونية المتعالية على ما هو قومي، ستعلن أرنت بغيظ أن فكرها لا وطن له، غير تأملي وأنه بالتالي مناهض للفلسفة.

إن فكر أرنت يريد فهم الشر الكياني "اللاكوني a cosmique" المنفصل عن العالم وعن الإنسانية، سواء كان بأوشفيتز أو بمعتقلات الكولاك أفه أو في أي مكان آخر، باعتباره شرا تكراريا لظاهرة الحداثة، وضد هذا اللاكوني "لا يوجد سوى حل واحد يتمثل في "التعددية المفارقة للكائنات المتفردة."

وهذه الصيغة الرائعة ذات النكهة التوراتية، تعني أن العيش في هذا العالم هو الانتماء إلى مجموعة محددة ـ هكذا فإن أرنت تعتبر نفسها يهودية بدون انتهازية ـ وهو انتماء إلى الذات، إلى الفرد، ككائن متفرد "إنني متوترة، قلقة ومضطربة، تقول حنا".

وعلى هذا المستوى، الذي يبدو صعب المنال بالنسبة للعديد من قبائل العالم الراهن، يغدو الفعل مقيدا، مرئيا وصراعيا، لأن العالم المشترك لا يمكنه أن يتطور بدون صراعات بين الأفراد ـ وليس بين السلالات!

فالأمر يتعلق بـ "الحياة النشيطة Vita activa" البعيدة عن الانسحاب الميتافيزيقي الذي تعتبره حنا السبب المباشر أو غير المباشر، في انبثاق السلوك اللاكوني اللاإنساني. إن التفكير في الممارسة يلغي كل لامبالاة، فهو المدافع الوحيد ضد تحويل الإنسان إلى وضعية الحيوان.

لكن هذه الزمنية غير المتوقعة الخاصة بما هو إنساني، تعارض زمنية الحياة والإنتاج ودورة التوالد، مثلما تعارض زمنية الأعمال الخالدة في الفن والشعر والفلسفة. فلا مجال للتنازل أمام ما هو طبيعي وكوني.

هكذا فإن مؤلف تاسين سيبرز بشكل رائع فكر أرنت المنتقل من رفض الفلسفة إلى تبني نزعة كونية هي بمثابة حب للعالم، وصولا إلى إعلان نهاية التاريخ الكوني وانبثاق تاريخ الإنسانية.

وبصيغة واضحة، فإن التفكير في ما هو سياسي، يعني أن يكون الإنسان مواطنا عالميا. وهذه هي التسمية التي كانت أرنت تنعت بها ياسبرز. ولأن إيخمان لم يكن مواطنا عالميا، فإنها ستدينه على طريقتها: فمعه ليست لدي ـ أنا، حنا أرنت ـ أية رغبة في أن أقاسمه نفس الكوكب. فأن يكون المرء مواطنا عالميا، معناه الانتماء إلى المجموعة التي اختارها. لكن هذا يعني أيضا الانتماء إلى مجال خاص على مستوى المعتقدات والمشاعر والإيمان والقناعات والأهواء.

هكذا فإن أرنت، ابنة بول ومارتا، هذه اليهودية الألمانية ذات الجنسية الأمريكية، المنتقدة للصهيونية، زوجة بلوخر وعشيقة هايدجر، أرنت المثيرة للفضائح، تهمنا بنفس القدر الذي تهمنا فيه حنا الفيلسوفة المرتدة، التي لا موطن لها، الكونية والمواطنة العالمية، التي تمكنت لوحدها في عصرنا، من التفكير في ضرورة الربط بين الكائنات المتفردة والجماعات التي تنتمي إليها. وهو ما يمنح لهذا التفكير سمة الراهنية.